كتب

في كتابه الأخير، يبدو جاك أتالي مثل مؤرّخ، أي ذلك الذي يهتم بالماضي، لكنّه يقع على الطرف النقيض على سلّم التصنيفات المعرفية؛ فهو كما عُرف في كتابات سابقة عالم مستقبليات. يبدو التاريخ مجرّد ذريعة كي يُنبئنا بمصائر البشرية وممكناتها

تواريخ الميديا حديث عن الحقيقة وغيابِها في آن

على أمل مجاراة الطوفان

شوقي بن حسن

«لا يمكن أن نقول الحقيقة على شاشة التلفزيون. هناك كثير من الناس يتفرّجون»؛ بهذه العبارة التي التقطها من أحد سكيتشات الفنان الكوميدي كولوش، يصدّر المفكّر الفرنسي جاك أتالي (1943) كتابه الأخير «تواريخ الميديا: من إشارات الدخان إلى شبكات التواصل الاجتماعي، وما بعد» (منشورات فايار، فبراير/ شباط 2021)، ولعلّه لم يجد في مدوّنة المفكّرين والمؤرّخين عبارة كهذه تفي بالفكرة الأساسية لمشروعه الموسوعي، وتمثّل مدخلاً يوصل القارئ بسرعة إلى أعمق إشكاليات تاريخ الميديا؛ فهو تاريخ الحقيقة وغيابها في آن.

فإذا كان دور الميديا المعلن والمعروف هو الكشف والإظهار، فهي أيضاً تُخفي وتحجب، بل تفعل الأمرين النقيضين بشكل متزامن أغلب الوقت. تتصدّى لإضاءة بعض الظواهر فتعتّم على أخرى، وتتولّى دور التوعية فإذا بها تتحوّل أيضا إلى أداة تعمية. وتظهر كفضاء للحريات فيتبيّن أنّها أيضاً وسيلة مراقبة. وإذا نظرنا إلى تاريخ الميديا من هذه الازدواجية سنفهم لماذا اختار أتالي صيغة الجمع في العنوان.

لا تقتصر دلالة مفردة الميديا على وسائل الإعلام، إنّها كلّ ناقل للمعرفة والأفكار والحالات الشعورية والميولات. وبهذا المعنى، فمع الجريدة والراديو والتلفزيون والإنترنت، تشمل مفردة الميديا الكثير من الأشياء معاً، معظمها متداخل لكن ينبغي التفريق بينها، فالصوتيات اللغوية من الميديا وكذلك الكتابة، والكتابُ، والنص، والورق، ومنظومات الإشارات وغير ذلك.

هذا التنوّع في دلالات الميديا يجعل من التأريخ لها أمراً في غاية التشعّب، بل إنّ المؤلف يشير إلى أنّ تاريخ الميديا أوسع من تاريخ العالم، فحين يضع مؤرّخ نصب عينيه كتابة تاريخ العالم فما عليه سوى الوقوف على ما استقرّ بأنّه حقائق تاريخية ويربط بينها. أما الناهض بمشروع كتابة تاريخ الميديا فلا يمكنه أن يُغفل المغالطات والإشاعات والأكاذيب، وكثيراً مما ينبغي على المؤرخين أن يُسقطوه.

ربما، علينا أن ننتبه إلى أنّ من وضع على عاتقه كتابة «تواريخ الميديا» ليس مؤرّخاً، أي ذلك الذي يهتم بالماضي، بل هو على الطرف النقيض بمعنى من المعاني على سلّم التصنيفات المعرفية؛ فقد عُرف جاك أتالي أساساً كعالم مستقبليات، ورغم أنّه يتصدّى إلى تاريخ، بل إلى تواريخ، فهو يحافظ على حسّه المستقبلي، وبذلك فإنّ الكتاب يقوم على ازدواجية لافتة حين يجمع بين عودة للتاريخ وبين التقاطات تعود بنا من قرون بعيدة إلى اليوم ومن ثمّ تصنع امتدادات في الزمن.

من ذلك أنّه حين يدرس سرعة انتقال المعلومات بين الأزمنة يتناولها من زاوية قدرتها على ربط شخص ما بما لا يمكن له أن يدركه مباشرة بحواسه، فكانت الرسالة المكتوبة تتيح بناء صورة ذهنية عن حدث وقع في مكان آخر، ثم أتت الجريدة فأضافت للنص الصورة المرسومة ثم الفوتوغرافية، وأخيراً بات من الممكن مع النقل التلفزيوني المباشر أو الهواتف المحمولة أن نحيط بما يحدث في أبعد نقطة عنا من الكرة الأرضية.

التلاعب بصيغة الجمع

ليست هذه هي المرة الأولى التي يتلاعب فيها جاك أتالي بصيغتيْ المفرد والجمع في عناوين كتبه، فنحمل أحدهما على معنى الثاني، إذ إنّ الأمر بات أشبه بمتلازمة تبدو كأنّها ظاهرة أسلوبية توافق أهواء المفكّر الفرنسي. فقبل «تواريخ الميديا»، أصدر «تواريخ الزمن» (1982)، و«تواريخ البحر» (2017)، و«تواريخ الغذاء» (2019)، لكنّه اختار أن يكون كتابه «تاريخ الحداثة» (2013) في صيغة المفرد.

لكنّ أتالي لا يقف هنا، فيظهر حسّه المستقبليّ حين يشير إلى أن تطوّر التكنولوجيا يمكن أن يمدّنا بأكثر من الصورة الذهنية أو الحسّية، كأن يتيح لنا أن نشعر بما يشعر به شخص آخر في مكان بعيد، وهو زمن يطلق عليه أتالي اسماً بشكل استباقي «عصر ما بعد المعلومة» وفيه يمكن - بمعنى من المعاني - أن «نعيش حياة الآخرين».

إلى جانب الانتقال بين ماض وحاضر ومستقبل، ينتقل الكتاب أيضاً بينَ مجموعة من الحقول الاجتماعية المختلفة، أهمها الحقل الصحافي وقد أحاطه بحقول السياسة والفن والأكاديميا، وبالتالي تحضر في كلّ تاريخ من تواريخ الميديا إضاءات ضرورية عما نقصيه عادة من دلالات الميديا، بل إنّنا يمكن أن نخرج من قراءة الكتاب بتاريخ عن الموسيقى، وتاريخ آخر عن الطبّ وآخر للدين، كما نتقاطع مع تاريخ الممارسات الديمقراطية وغيرها.

تاريخ الميديا بهذا المعنى يتميّز بكونه من الممكن أن يصبّ فيه كلّ شيء لأنّ كلّ شيء مادة للميديا، ولا ينسى المؤلف ها هنا أن يتناول بالحديث مثلاً الجائحة العالمية، وكأنّه يودّ أن يبث في كتابه شيئاً من الراهنية، وليس أسهل من ذلك نظراً لمرونة موضوعه.

يتعامل أتالي مع هذه المرونة بشكل واعٍ، فهو يجزم أنّ كتابه كان يمكنه لأيّ سبب كان أن يتطرّق لمواضيع أخرى، كما يمكن أن يُسقط بعض الفصول منه ويأتي بأخرى من دون أن يتغيّر شيء من فكرته ومن دون تحوير في العنوان. ومن أطرف ما يذكر أتالي أنّ القارئ العجول يمكنه أن يمرّ سريعاً على عناوين الفصول وسيخرج بأهم الأفكار، أما الأكثر صبراً من هذا النوع من القرّاء فيمكنه أن يقرأ بضع صفحات من كلّ فصل ففيها سيجد حكايات قد تكون غير مترابطة لكنّها تفضي إلى بناء ظاهرة الميديا في ذهنه، وفي الأخير يدعو أيّ قارئ إلى «التمتّع» بكلّ ما يرد في الكتاب قياساً على متعة المؤلف نفسه في إنجاز عمله.

لكنّ تاريخ الميديا ليس مجرّد حكايات ينظمها مفهوم جامع؛ إنّه بعبارة أتالي «مساحة يُلعب فيها مصير البشرية برمتّها». مثلاً، يمكن تفسير التفاوت الحضاري في كلّ الأزمنة بقدرات كلّ أمّة على السيطرة على فضاء المعلومات، بل إنّ مفهوم الحضارة نفسه يمكن أن نقاربه من منطلق المعلومات، فما يجمع بين أفراد يعتقدون بأنّهم مشتركون في حضارة واحدة هو احتكاكهم الدائم بمجموعة من المعلومات التي تحدّد هوّيته ومصيرهم المشترك.

بالنسبة لأتالي، فإنّ المجتمعات المتخلّفة من منظور تداول المعلومة هي المجتمعات التي لا يصل فيها الجزء الأكبر من الناس إلى فضاءات تداول المعلومة. هؤلاء ورغم انتمائهم إلى جماعة لا يمكن أن تكون لهم مساهمة في البناء الحضاري الشامل.

يمكننا - كقرّاء عرب - أن نفارق كتاب أتالي قليلاً فنفحص صفحة من تاريخنا، وسنرى أنّ الغزو الغربي لمنطقتنا في القرن التاسع عشر قد وجد شرائح اجتماعية واسعة في البلاد العربية لا تندرج في فضاء المعلومات، وبالتالي، فهي تعيش في الهامش الحضاري. يفسّر هذ المنظور اختلال التوازن بين الشرق والغرب، ولعلّ الكثير من البلاد العربية لم تخرج بعد من أخطاء تهميش شرائح من مجتمعاتها بسبب خواء سياسات التعليم والتنمية والثقافة.

سننتبه ونحن نضرب هذا المثال إلى أنّ أتالي لم يحضر في تاريخه للميديا كلّ العالم. الأمر معروف لدى الكتّاب الغربيين، فتاريخ الغرب هو تاريخ العالم لدى أغلبهم. لكنّ المفكّر الفرنسي اجتهد في إثبات العكس، من دون نجاح يذكر، فكان يستحضر ما هو غير أوروبي في مقارباته لكن بشكل متحفيّ، فلا أثر للأمم غير الأوروبية إلاّ في سياقات الحديث عن تطوّر صناعات الكتابة القديمة من الفينيقيين إلى السومريين، وهي ملامسات سطحية لعلّ تحاشيها كان يعطي كتابه مزيداً من التماسك، وما ضرّ لو اعترف المؤلفون بأنّهم يتناولون فقط ثقافات يعرفونها بحق.

ربما أتى حرص أتالي على استحضار أكبر عدد من «المعلومات» في كتابه إلى محاكاة تاريخ الميديا، فهو أيضاً تاريخ الغريب والشاذ والناتئ وغير المتوقّع. فما لم يشعر كلّ قارئ - حتى الفرنسي الذي من المفترض أنّه القارئ الأكثر توقعاً - أنّه يصطدم بأشكال من الميديا لم تخطر بباله مما أنتجته الثقافات الأخرى، لن يصل إلى الفكرة الجوهرية لكتاب أتالي، وهي أنّ تاريخ الميديا أصبح ذا بنية طوفانية تدعونا إلى بناء أنظمة تسيير وضبط لها. الأمر أشبه بتحدٍّ جديد للإنسانية يشبه تحدّيات عصور بعيدة مع عناصر الطبيعة من جبال وأنهار وبحار.

تاريخ الميديا أوسع من تاريخ العالم لأنه يحتوي التضليل

يمكن تفسير التفاوت الحضاري من منظور تداول المعلومات

تجهيز عملاق للفنان الهندي انيش كابور في شيكاغو (Getty)

نظرة أولى

يدرس الباحث الفلسطيني بشير أبو منة العلاقة بين البعد الجمالي والحدث السياسي في النماذج السردية التي تضمّنتها النسخة العربية من كتابه **الرواية الفلسطينية من سنة 1948 حتى الحاضر**، الصادرة حديثاً عن «مؤسسة الدراسات الفلسطينية» بترجمة مصعب حياتلي. يعود إلى تأثير النكبة وما تبعها من شتات، وكيف استجاب الروائيون الفلسطينيون لتداعياتها من خلال نقد يجمع بين التحليل التاريخي والقراءة النصية لروايات عدد من الكتّاب، مثل جبرا إبراهيم جبرا، وغسان كنفاني، وإميل حبيبي، وسحر خليفة، كجزء من أدب ما بعد الاستعمار.

يمزج الكاتب والصحافي الأردني أحمد ذيبان الربيع، في كتابه **الشبع من الحياة**، الصادر حديثاً عن «دار فضاءات للنشر والتوزيع»، بين السيرة الذاتية والسرد وملاحظات من عمله الصحافي طوال خمسة وثلاثين عاماً. إذ يتضمّن العمل مشاهدات حيّة لأحوال السياسة والصحافة، والكتابة والمجتمع، الصحة والأوبئة، إلى جانب تأملات في الحياة، من خلال عرض قصص واقعية لبسطاء وفقراء ومكافحين من أجل حياة كريمة، ورصْد العديد من التجارب التي استطاع أصحابها أن ينتصروا للحياة على الرغم من المحطّات والتجارب القاسية التي مرّوا فيها.

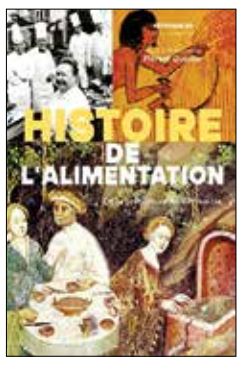

تاريخ الغذاء: من ما قبل التاريخ إلى القرن الحادي والعشرين كتاب جماعي صدر حديثاً عن منشورات «بيلين» تحت إشراف الباحث الفرنسي فلوران كيلييه. يقارب المشاركون في تأليف الكتاب ثقافة الأكل بتنوّعاتها بين الثقافات من زوايا معرفية متعدّدة مثل الأنثروبولوجيا والتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس. يشير تقديم الكتاب إلى خصوصية الغذاء كظاهرة بشرية حيث يجمع بين كونه ضرورة للحياة ومكوّناً ثقافياً يجري تعلّمه وتوارثه، كما أنه يجمع بين الحسّية ورمزيات المخيال، وهذه الازدواجية تجعل منه اليوم مادة ثرية للبحث العلمي.

الجغرافيا الحزينة.. نصوص في نوستالجيا الأمكنة عنوان الكتاب الذي صدر حديثاً للشاعر الفلسطيني الراحل خيري منصور (1945 – 2018) عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر». يدوّن منصور في كتابه نصوصاً تسائل التاريخ والأفكار والوجود، وتشير خصوصاً إلى فلسطين التي أُبعد عنها قسراً بعد احتلالها عام 1967، ومنها ما كتبه على الغلاف: «كم ربع قرن في العمر كي يتسع لكل هذه الهجرات؟ سؤال باغتني بعدد المرات التي عدت فيها إلى أمكنة، عشت فيها زمناً.. وكنت كلما لملمت أشيائي لوضعها في الحقيبة أنسى الأشياء ذاتها».

عن «مركز دراسات الوحدة العربية» صدر كتاب **دولة المصارف: تاريخ لبنان المالي** لـ هشام صفي الدين. يأتي العمل بمناسبة ذكرى افتتاح «مصرف لبنان» في الأول من نيسان/إبريل 1964، وهو يعيد تركيب تاريخ تأسيس البنوك في لبنان بتداخلاتها المتنوّعة مع عدة عوامل مثل الهجرة وصعود الخليج كمركز مالي عالمي وتأثّر بيئة البنوك بالمتغيّرات السياسية الكبرى مثل سياسات المرحلة الشهابية، وحرب لبنان. يمثل الكتاب زاوية جديدة في فهم تاريخ لبنان ومتغيّراته، كما أنه يقدّم مسالك إجابة لعدة أسئلة تُطرح على النخب اللبنانية اليوم.

التكفير في الجامعة التونسية عنوان كتاب جديد للباحث والروائي شكري المبخوت صدر عن «مسكلياني». العمل هو جزء ثالث من مشروع بدأه المؤلف في 2018 بعنوانٍ جامع: «تاريخ التكفير في تونس»، وتناول في جزئه الأول مجموعة من القضايا التي كان محورها اتهام مثقفين في عقائدهم، مثل الطاهر الحداد وعبد العزيز الثعالبي، ومن ثمّ تناول جزؤه الثاني - وكان بعنوان «أبناء بورقيبة» - ظهور تيار الإسلام السياسي في تونس، زعلاقته بقضايا تكفير كلّ من محمد الشرفي ويوسف الصديق، ليدرس الجزء الثالث من العمل تحوّل التكفير إلى سجال عِلمي.

عن منشورات «دار السلاسل»، صدرت مؤخراً ترجمة جديدة أنجزها فؤاد مرعي عن الروسية مباشرة لرواية **الجريمة والعقاب** لـ فيودور دوستويفسكي. يشير تقديم الترجمة أن الطبعة الجديدة «ليست تدقيقاً لترجمة سابقة ولا رصداً لأحداث الرواية، ولا تعريباً يسرد باللغة العربية معاني النص الأصلي، بل هو محاولة مخلصة سعت قدر الإمكان إلى أن تكون أمينة للنص الروسي، فتجد الصيغ المكافئة له في العربية من حيث المعنى و الأسلوب والخصائص الجمالية و الفنية». تعدّ الرواية التي صدرت عام 1866 أوّل عمل لفت الانتباه إلى عبقرية دوستويفسكي.

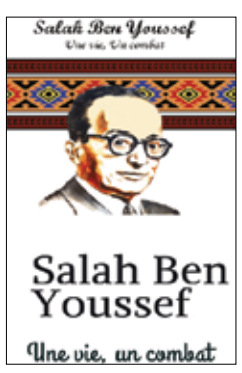

صالح بن يوسف: حياة وكفاح عنوان كتاب سيَري صدر عن منشورات «نقوش عربية» للمؤرخ التونسي منصف الشابي يعود فيه إلى إحدى أبرز الشخصيات التي ناضلت ضدّ الاستعمار الفرنسي. الكتاب الذي صدر بالفرنسية يقدّم أطروحة مضادّة لعدد من الروايات الرسمية المتداولة حول تاريخ مرحلة التحرّر من الاستعمار، فقد اختُزل بن يوسف بكونه معارضاً لسياسات الاستقلال الجزئي التي كان يقودها الحبيب بورقيبة، الأمر الذي جعله عرضة لتهم مثل الرجعية ومحاولة زعزعة النظام، ما أدّى إلى هروبه إلى المنفى ولاحقاً تمّ اغتياله في ألمانيا عام 1961.